المحاضرة الثالثة

العلاقة بين الانسان والبيئة

منذ ان خلق الله الانسان وهو يحاول جاهداً ان يستغل موارد بيئته بطريقة او بأخرى لإشباع حاجاته الاساسية في مرحلة والكمالية في مرحلة ثانية والمتتبع لتطور هذه العلاقة بين الانسان والبيئة على المدى الزمني (التطور التاريخي) وعلى المدى الافقي (اختلاف البيئات وتباينها من منطقة لأخرى) يجد انها علاقة دينامية يحكمها بالدرجة الاساس طبيعة البيئة من ناحية وقدرات وامكانات الانسان من ناحية اخرى ، وقد استحوذت محاولة تفسير هذه العلاقة على اهتمام الكثير من الجغرافيين والايكولوجيين الذين اجتهدوا في تقييم هذه العلاقة ولس ثمة شك ان اجماع الرأي في هذه القضية امرٌ غير وارد ، بطبيعة الحال فقد اختلفت الآراء وظهرت مدارس واجتهادات فكرية فقد اختلفت وجهة نظرها في تقييم هذه العلاقة ولن نخوض كثيراً في تفصيلات هذه المدارس وانما سنكتفي بتحليلي فلسفة كل مدرسة والادلة التي تدعم رايها :

١ – المدرسة الحتمية

تعطي هذه المدرسة للبيئة الطبيعية الاثر الاكبر في مجال العلاقة بين الانسان والبيئة وخي تؤمن بان الانسان من خلال الحتم البيئي انه مسير وليس مخير وهي في الحقيقة دعوة قديمة قدم الفكر الجغرافي ، ومن رواد هذه المدرسة هيبوقراط وارسطو اللذين ربطا بين المناخ وطبائع الشعوب وعاداتهم ، فعلا سبيل المثال ربط ارسطو سكان شمال اوربا بانهم شجعان ويمتازون بالمهارة والخبرة إلا انهم تنقصهم الشجاعة ، بينما امتاز الاغريق بالجرأة والشجاعة من ناحية والخبرة والمعرفة الواسعة من ناحية اخرى.

يعد فيكتور كزن من مؤيدي الحتمية من خلال اقواله الشهيرة (اعطني خريطة لبيئة ما ومعلومات كافية عن موقعها ومناخها ومواردها الطبيعية وبإمكاني على ضوء ذلك ان احدد لك اي نوع من الانسان يمكن ان يعيش في هذه البيئة وما هي نشاطاته الاقتصادية) ، كما ايدت المدرسة الفرنسية والتي من ابرزها ديمولين الذي ذهب في تطرفه حداً بعيداً انكر فيه على الانسان ما اوتي من عقل وتفكير وعلم وقدرة تمكنه من الاستفادة من بيئته بطريقة معينه او التحلل من سيطرتها.

٢ – المدرسة الامكانية :

تتلخص فلسفة هذه المدرسة (ان الانسان لليس مجرد مخلوق سلبي غير مفكر وخاضع تماماً لمؤثرات وضوابط البيئة الطبيعية ولكنه قوة ايجابية فعاله ومفطرة وذا خاصية دينامية قادرة على التغير والتطوير). كما ترتكز فلسفة هذه المدرسة على ان البيئة الطبيعية تقدم للإنسان عدد من الاختيارات وان الانسان بمحض ارادته يختار منها ما يتلاءم مع قدراته واهدافه وطموحاته وتقاليده ، ويعد الجغرافي الفرنسي فيدال دي لا بلاش من ابرز رواد هذه المدرسة إذ يرون رواد هذه المدرسة انه ما من بيئة لم تمتد اليها يد الانسان بالتعديل او التغير او التحوير ولا تكاد توجد بيئة مالم تتضمن آثار وبصمات انشطة الانسان ، لذا ان البيئة لم تعد مظهراً طبيعياً بل طغى عليها مفردات البيئة المشيدة التي تعد انجازاً بشرياً ، ومن ثم ليس هناك حتمية مطلقة صارمة بل هناك امكانية مرنة ، ويرى اصحاب المدرسة الامكانية ان الانسان سيداً للبيئة والمسيطر عليها فهو الذي يحدد نمط استغلاله لموارد بيئته ، ويستنتجون من ذلك لن ان البيئة الطبيعية هي العنصر الحاكم في هذه العلاقات لتشابهت وتجانست الانشطة البشرية بين البيئات الطبيعية المتشابهة ، ولكن لو رجعنا الى الواقع لا نجد هذه الفرضية قائمة ، فلو اخذنا مثلاً البيئة الجافة في كل من الولايات المتحدة الامريكية وصحراء الجزيرة العربية وصحراء كلهاري هل نجد الانشطة البشرية في كل هذه البيئات واحدة لمجرد تشابه مكونات الطبيعة ، الواقع ينفي هذا التشابه مما يدحض فكرة الحتمية المطلقة من اساسها.

٣ – المدرسة التوافقية

لا تؤمن هذه المدرسة بالحتم المطلق ولا بالإمكانية المطلقة ، بل هناك احتمالات قائمة في بعض البيئات لكي يتعاظم الجانب الطبيعي في مواجهة سير الانسان وقدراته المحدودة (الحتمية) وفي بيئات اخرى يتعاظم دور الانسان المتطور في مواجهة تحديات ومعوقات البيئة (امكانية) ومن ثم فهي مدرسة تصور واقع العلاقة بين الانسان وبيئته كما هي موجودة فعلاً دون تحيز او تعصب لطرف على حساب الطرف الثاني،

لقد بنى اصحاب هذه المدرسة التي تمثل فكر غالبية الجغرافيين المعاصرين على ان البيئات الطبيعية ليست ذات تأثيرات واحدة على الانسان من منطلق اختلاف واستجابة هذه البيئات من ناحية ومن خلال اختلاف قدرات الانسان وامكانياته واستغلال موارده من ناحية اخرى ، لذا فان انصار هذه المدرسة يرون ان الحتمية قائمة في بعض البيئات والامكانية قائمة في بيئات اخرى ، فمثلاً اذا

اقترنت بيئة صعبة مع انسان متخلف تسود الحتمية واذا ما اقترنت بيئة سهلة مع انسان متطور فتسود وبلا شك الامكانية.

استطاع المؤرخ الانكليزي العالمي ارنولد توينبي ان يبلور طبيعة الانسان وبيئته بأربع استجابات :

أ – استجابة سلبية

هي التي يكون فيها الانسان من خلال تخلفه العلمي والحضاري لا يستطيع ان يطوع بيئته ويقف امامها عاجزاً لا حول له ولا قوة يأتمر بأمرها مثل حرفة الجمع والصيد البدائي.

ب – استجابة التأقلم

يكون فيها الانسان ارقى نسبياً من الحالة الاولى ، إذ يحاول الانسان وقد اوتي بعض المعرفة من ان يتأقلم جزئياً مع ظروف بيئته الطبيعية ويمثلها بيئة حرفة الرعي البدائي او المترحل حيث تعتمد تربية الحيوان على ما توفره البيئة الطبيعية من مرعى وموارد مياه لشرب الحيوانات فضلاً عن بيئة الزراعة البدائية ويلاحظ ان البيئة في ظل هذه الاستجابة لا تزال صاحبة التأثير الاكبر على الانسان وبالتالي يبرز دور الحتم البيئي.

ج – استجابة ايجابية

درجة لا يقف الانسان عاجزاً تماماً امام بيئته الطبيعية بل يحاول التغلب على معوقات البيئة وتحدياتها للوفاء باحتياجاته وهنا تظهر قدراته في تطويع عناصر البيئة الطبيعية لصالحه ويمثلها حرفة الزراعة غير البدائية والرعي المتطور والصيد المتطور وهي حرفة تظهر فيها امكانيات الانسان وقدراته بشكل واضح وتمثل هذه الاستجابة اولى درجات الامكانية.

د – استجابة ابداعية

درجة لا يكتفي الانسان فيها بمجرد التأقلم بل يتعدى هذا ليبتكر ويبدع ليتفوق على البيئة ويمثلها حرفة الصناعة بصفة خاصة وهي ارقى